الفصل الأول

الوراثة والبيئة
(قبل المولد)

المأساة، ومعركة الطموح والتحدي

في مفترق الطرق
(رحلة الى بغداد)

obeikandl.com

obeikandl.com

(١)

الوراثة والبيت
(قبل المولد)

- أجداد وآباء :
  تنوخ ، بنو الساطع ، آل سليمان .

- أخوال :
  بنو سبيكة .

- الأسرة :
  الوالد ، الأم ، الإخوة .

obeikandl.com

أجداد وآباء

أتَمشي القوافي تحتَ غيرِ لوائِنـا
ونحن عـلى قُوَّالِهـا أُمـــراءُ
وما سلبتْنـا العِـزَّ قـط قبيلـةٌ
ولا بـات منـا فيهـمُ أُسَراءُ
ولا سار في عَرْضِ السَّمَاوةِ بارقٌ
وليس لـه من قومِنا خُفَـراءُ

أبو العلاء
(سقط الزند)

خرج إلى الدنيا والشمس غاربة والنهار مُدبِر . وكانت ليلته الأُولى على الأرض من ليالي المحاق . ولولا مولده في بيت علم وفضل ، لطُوِيت تلك الليلةُ في غيابة الزمن ، ولغابت منا معالم الطفولة لذلك الوليد الذي قُدر له أن يبهر الناس بعد حين ، وأن يلفت إليه تاريخنا فيسجل

خطواتِه وأنفاسه ، منذ شَبَّ عن الطوق .

ذلك أنه حين وُلد بمعرة النعمان ، من أعمال حلب ، في مغرب الشمس من يوم الجمعة لثلاث ليالٍ بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة ، [1] لم يكن في حساب التاريخ مَن سيغدو الأديبَ الأكبر والحكيمَ العلَم ، ولا كان لأحدٍ من أهل بلده أن يتكهن بأن هذا الوليد سوف يكون أشهر مَن يُنسب إلى « معرة النعمان » فلا تُذكر في كتب البلدان والرحلات والتاريخ إلا مقترنةً باسمه ومُعَرَّفةً به ، مع أنها لم تكن مغمورة قبل مولده ، بل ذكرها مِن زمنٍ قبله : « البلاذُري » في « فتوح البلدان » و « ابن حوقل » – من جغرافيي القرن الرابع – في « المسالك والممالك » وقبلهما ذكرها « الواقدي » في « فتوح الشام » .

كل ما كان من أمر هذا الوليد ، أنه « أحمد بن عبد الله بن سليمان » سليل بيت ماجدٍ مُعرِق في الفضل والعلم ، وآباء كرام منجبين ، فيهم ميراثُ بنْي الساطع وعزُّ تنوخ .....

****

وتنوخ : قبيلة عربية أصيلة ، يتصل نسبها بيعرب بن قحطان جَدِّ العرب العاربة . ويمضي النسابون بها إلى بعيد ، فيصلونها بهودٍ

---

(١) ابن الأنباري : نزهة الألبا في طبقات الأدبا – ٤٢٥ ط القاهرة ١٩١٤ .
وابن الجوزي : المنتظم في أخبار الأمم : ١٨٤/٨ ط حيدر اباد .
وابن العديم : الإنصاف والتحري – ص ٥١٢ من تعريف القدماء .

ابن شالح بن رافد بن سام بن نوح عليه السلام [1] .

وكانت تنوخ بطونا من « تيم اللات » القضاعي القحطاني . سُميت بذلك لأنها تَنخَتْ من قديم بالشام ، أي أقامت ورسخت . ويقال إنهم الذين اختطوا « الحيرة » وكانوا أول من نزلها وعمَّرها . وكان لهم بأْس وقوة وغناء وكثرة . وماضيهم حافل بالعزة والمجد والإباء ، وكانت لهم في الجاهلية وقائعُ ظافرة مع الفرس ، فيشهد المؤرخون لتنوخ بأنها « كانت من أكثر العرب مناقبَ وحَسَبا » [2] .

وكذلك كانوا في الإسلام من أشد قبائل العرب شوكة وأكثرِهم في جند الفتوح عددا . ومن عجبٍ أنهم أبلوا مع المسلمين في قتال الفرس بلاء مشهودا ، حميةً للعرب ، وإن ظلوا على دين النصرانية ! وفي تاريخ الفتوح أنهم أبوا مع ذلك البلاء في قتال الفرس ، أن يؤدوا الجزية ، أنفةً منهم واعتزازا ببأْسهم وبلائهم . فلما سار « عمر بن الخطاب » أمير المؤمنين إلى الشام ، قدموا عليه فلم يقنع منهم رضي الله عنه بغير الإسلام أو الحرب ، وأمهلهم سنتين ، على أن يؤدوا ما على أهل الذمة من جزية . فأَبوا عليه وقالوا : « خذ المال مناعلى اسم الصدقة ، دون اسم الجزية » .

ورفض أمير المؤمنين أول الأمر ، ثم أجابهم إلى أن يأْخذها منهم على اسم الخراج . فاستجاب له قوم منهم وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبي العلاء . وأسلم بعضهم في ولاية « أبي عبيدة بن الجراح »

---

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري : ص ٣٨٦ من « التعريف » .

وبعضهم في أيام « المهدي بن المنصور أبي جعفر العباسي » .

أما الذين لم يستجيبوا ، فدخلوا إلى بلاد الروم وهم على نصرانيتهم ، مع « جبلة بن الأيهم » آخر ملوك غسّان [1] .

****

وبنو الساطع ، الذين منهم بيوتُ المعرة : أعز بطون تنوخ . « وهم المشهورون بالشرف والسؤدد والرياسة والشجاعة والفضل » .

واسمُ الساطع : « النعمانُ بن عدي » قيل إنه لُقِّب بالساطع لجماله وبهائه . وكان جوادا شجاعا ، ملك عليهم برهة وكانت له حروب ووقائع مع أكاسرة الفرس . وشنّ الغاراتِ على السواد ، فسُميت تنوخ على أيامه بالدواسِر ، لما ظهر من شدتهم وبأسهم .

وبعض المؤرخين يقول إن « معرة النعمان » تنسب إليه . وآخرون منهم يذهبون إلى نسبتها إلى « النعمان بن بشير الأنصاري » وكان واليا على حِمص وقنسرين ، لمعاوية بن أبي سفيان ثم لابنه يزيد . فيقال إن ابناً للنعمان خرج في رحلة صيدٍ إلى أَجَمَةٍ كانت موضعَ المعرة ، فافترسه سبع . فجزع عليه أبوه النعمان ، وبنى له منزلا عند قبره . فبنى الناسُ لبنائه وعمرت البلدة ، ونسبت إليه .

وبيت أبي العلاء : من بني سليمان بن داود بن المطهر ، سليل الساطع . وفيهم يقول « ابن العديم » مؤرخ حلب : « وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها ، من بني سليمان » [2] .

---

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري – ص ٤٨٩ من : التعريف .

(٢) ابن العديم : الإنصاف ، ٤٩٠ .

وسليمان هذا : هو الجد الخامس لأبي العلاء . وَلِيَ حفيده أبو الحسن سليمان بن أحمد ، قضاء المعرة . ثم تولاه من بعده ولدُه أبو بكر محمد ، جد والد أبي العلاء . وفي الجد ، أبي بكر بن سليمان ، يقول أبو بكر الصنوبري :

بأبي يا ابنَ سليمانَ لقد سُدتَ تنوخا
وهمُ السادةُ شبانا لَعَمري وشيوخا
أدرَكَ البغيةَ مَن أضحى بناديكَ مُنِيخا
وارداً عندك نِيلا وفراتاً وبليخا
واجداً منك متى استصرخ للمجدِ صَريخا
في زمانٍ غادر الهِمَّاتِ في الناس مسوخا [1]

وخلَفه على قضاء المعرة ، بعد وفاته سنة ٣٣١ هـ ، ولدُه « أبو الحسن سليمان بن محمد » الذي تولى أيضا قضاء حِمصٍ مع قضاء المعرة . وكان محدِّثا فاضلا شاعرا ، ومن رقيق شعره في الناعورة :

وباكيةٍ على النهر تئنُّ ودمعُها يجري
تذكرني بأحبابي وحالي ليلةَ النَّفْرِ
وأذري مثلَ ما تذري وأُسعدها ولا تدري
على فقدي لأحبابي وما قد ضاع من عمري
فما هي فيه مشهورٌ وما أنا فيه في السِّترِ
كأني في بسيطِ الأر ضِ بين الناس في قبرِ

(١) ابن العديم : الإنصاف ، ٤٩٠ .

والقاضي أبو الحسن سليمان ، هو جد أبي العلاء .

توفي بحمص وهو على قضائها ، في جمادى الأُولى سنة ٣٧٧ هـ ، وحفيدُه أبو العلاء أحمد ، في الرابعة عشرة من عمره . على ما حقق « ابن العديم » في (الإنصاف والتحري) .

****

وجَدّةُ أبي العلاء لأبيه : « أم سلمة بنت أبي سعيد الحسن بن إسحاق ابن بلبل المعري » .

ولِيَ أبوها الحسن قضاء المعرة . وكانت تروي الحديث . وقد عاشت حتى بلغ حفيدها أبو العلاء سِنَّ الطلب ، وعدَّها « ابن العديم » بين الشيوخ الذين سمع أبو العلاء منهم الحديث .

****

في هذا البيت الكريم الماجد ، وُلِدَ أبو العلاء .

ومن تلك السلالة المعرقة في الفضل والعزة والعلم ، تلقى ميراثه .

وقد كان بعد أن شبَّ ووعى ، باديَ الاعتزاز بآله وقومه ، حريصا على تتبع مناقبهم ومفاخرهم وقراءة ديوان شعرهم . وله فيهم شعر نابض بالحب والولاء ، منه قوله في قبيلته :

أتمشي القوافي تحت غيرِ لوائنا
ونحن على قوّالِها أمراءُ
وأي عظيم رابَ أهلَ بلادنا
فإنا على تغييره قدراءُ

ومـا سلبتْنـا العِزَّ قـط قبيلةٌ

ولا بـات منـا فيهـمُ أسَراءُ

ولا سار في عرض السماوة بارقٌ

وليس لـه من قومِنـا خفـراءُ

(سقط الزند)

obeikandl.com

أخوالـــ

كأن بني سبيكةَ فوق طيـــر
يجوبون الغوائـــرَ والنجـــادا
(سقط الزند)

اما خئولته ، ففي بيت معروف من بيوتات حلب :

جدُّه لأُمه : محمد بن سبيكة . وله من الولد : أم أبي العلاء .

وأخواله : أبو بكر ، وأبو القاسم علي ، وأبو طاهر المشرف .

أما أبو بكر فعجلت إليه المنية قبل أخويه . ويذكره أبو العلاء في رسالة عزاء كتبها إلى خاله أبي القاسم علي ، وقال فيها : « والله يبقيه ولا يشقيه ، ويريه في مولاي أبي طاهر وولده ، ما رآه في وَلدِه سعدُ العشيرة ... » .

وقد لفتت هذه العبارة ، الأُستاذ « محمد سليم الجندي » [1] فاستدل

(١) في كتابه « الجامع » طبع دمشق .

بها على ما ذهب إليه من أن أبا طاهر ، هو ابن الخال أبي القاسم ، وليس أخاه .

ولم أطمئن إلى ما ذهب إليه خلافا لما تعطيه نصوص الرسائل التي جاءت في مجموع « رسائل أبي العلاء » مما بعث به إلى خاله أبي طاهر . وليس ما يمنع أن يُعزّى الخال أبو القاسم علي ، بأخيه الحي أبي طاهر ، عن أخيه الفقيد أبي بكر .

ويكون قول أبي العلاء في عزائه : « ويُريه في مولاي أبي طاهر ، وولده » تقديماً للعزاء بالأخ ، ثم بالولد . ويأتي بعدُ مزيدُ نظر في صلة أبي العلاء بخاليه ، وكانت وثيقة متينة . ولهما في تراثه ذكر خاص يعبر عن المودة والولاء والإكبار .

ونفهم منه أن أبا القاسم كان من أعيان التجار ، بعيد الهمة كثير الأسفار .

ففي ديوان (سقط الزند) قصيدة مطولة ، أرسلها أبو العلاء إلى خاله « أبي القاسم علي » وكان قد سافر إلى المغرب فأطال الغيبة ، وأنقل هنا من أبياتها :

تُفدِّيكَ النفوسُ ولا تُفادَى
فأَدْنِ الوصلَ أو أَطِلِ البعادا
أرانا يا عليُّ وإن أقمنا
نشاطرك الصبابةَ والسهادا
ولولا أن يُظَن بنا غلوٌّ
لَزِدنا في المقال من استزادا

وقيل : أفـاد بالأسفار مالاً ،
فقلنا : هل أفاد بها فـؤادا ؟
وهل هانت عزائمـه ولانـت
فقد كـانت عرائكُهـا شِـدادا
إذا سارتْكَ شهْبُ الليل قالت:
أعـان اللهُ أبعدَنـا مُـرادا
وإن جارتْـك هُوجُ الريح كانت
أكَـلَّ ركائبـا وأقـلَّ زادا
علامَ هجرتَ شرق الأرض حتى
أتيت الغربَ تختبـر العبـادا
وإن تجـد الديـارَ كما أراد الـ
ـغريبُ فما الصديق كمـا أرادا
إذا الشِّعرَى اليمانِيَـةُ استنارت
فجـدِّدْ للشآميـةِ الـودادا
ظعنـتَ لتستفيـد أخـاً وفيّاً
وضيَّعـتَ القديـمَ المستفادا
نراسِلك التنصـحَ والقوافي
وغيـرَك مَـن نعلمـه السدادا

****

وإلى « أبي القاسم علي » بعث أبو العلاء رسالته المشهورة إثر انسحابه

من بغداد ومن الدنيا ، فبكى فيها أُمه التي ماتت بالمعرة قبل وصوله إليها ، واعتذر إليه عن عدم مروره بحلب ، في طريق العودة من بغداد ، اعتذارَ مقصرٍ محزون ... وذكر خاله أبا طاهر ، بالوفاء والثناء . وختم الرسالة بقوله :

« وأنا أحمل إلى مولاي ، أدام الله عزه ، وإلى مولاي أبي طاهر ، عضدني الله ببقائه ، سلاما له نضرة الأَلاء وصفاءُ الماء ، وعذوبةُ الأَرْي وتتابع القطر وخلود النجوم وأَرجُ العرار وتألّقُ الوميض . »[1]

أما « أبو طاهر المشرف » فقد كان من المشتغلين بعلوم العربية . وصلت إلينا في (رسائل أبي العلاء) رسالة بعث بها من بغداد ، « إلى خاله الشيخ أبي طاهر المشرف » ومنها نعلم أنه كان مشغولا بأمر وشرح السيرافي لكتابِ سيبويه ، كما نعلم أنه كانت بينه وبين أبي العلاء مراسلات سابقة ، حول نسخ من شرح السيرافي بخطوط مختلفة ، أراد أبو طاهر أن يعرف رأي أبي العلاء في كل نسخة منها .

وديباجة الرسالة ، شاهدة على أن أبا العلاء كان يُنزل أبا طاهر من نفسه ، منزلة السيد الشيخ ، والأُمِّ الراعية الحنون ؛ فهو يحييه فيها تحية الشوق المرهف إليه ، والأَسف العميق لبُعدِه ، والحنين إلى ماضٍ معه ، يتذكره « تذكر الفطيم ثدي الوالدة » ، ويلوذ إليه فزعا إلى نجدته واثقا من مكارمه ، شاكرا أياديه شكرا « يتجدد مع النَّفَس ».

وقال بعد الديباجة :

---

(١) من (رسائل أبي العلاء) نشر مرجليوث .

« وفي هذا اليوم وصل كتابه فسُرِرت به سرور الظمآن وردَ نميرا ، والساهِر صادف سميرا . وكان ما ضمنه من ذِكر سلامته ، بُشرى لها تخِفُّ الأحلامُ خفةَ القائل ، ولا يُلام : « يا بشرى هذا غلام» ؛ واللهُ يمنُّ باجتماعٍ ليس بعده من إزماع .

« وفهمت ما ذكره من أمر النسخة المحَصَّلة ، وهو ، أدام الله عزَّه ، الكريمُ المتكرم وأنا المُثقل المتبرم ... وقد كنت قلت في بعض كتبي إلى سيدي : إن كانت الخطوط مختلفةً والأبوابُ مؤتلفةً فلا بأس ... ما عدا خط « علي بن عيسى » – الربعي [1] – فإنه رجل اتكَّل على ما في صدره ، فتهاون بإحكام سطره .

« وإنما رجوت ببركته أن يرتفق أناسٌ كما قال الله تعالى : « وشروه بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودة وكانوا فيهِ من الزاهدين » ...

وأنا والجماعة نهدي إلى سيدي الشيخ وإلى جميع أصدقائه ، سلاما تأرَجُ الكتبُ بحمله .... وحسبي الله » .

****

وفي أخواله بني سبيكة ، يقول أبو العلاء :

كأن بني سبيكة فوق طير
يجوبون الغوائر والنجادا

---

(١) يأتي ذكره مرة أخرى في رحلة أبي العلاء إلى بغداد . استأذن في الدخول إلى مجلسه ، فقال : ليصعد الاصطبل .
وانصرف الضرير المغترب ، مجروح القلب .

أبــالإسكندر المِلكِ اقتديــتم
فما تضعون في بلدٍ وِسادا [1]

. . . . . .

****

(١) من داليته في سفر خاله أبي القاسم إلى المغرب . وقد مرت أبيات منها . أنظرها كاملة في (سقط الزند) .

obeikandl.com

الأسـرة :

الوالـد

مضى طاهرَ الجثمان والنفسِ والكـرى
وسهدِ المنى ، والجيبِ والذيلِ والرُّدْنِ
فيا ليت شِعري هل يخـفُّ وقـارُه
إذا صـار أُحْـدُّ في القيامة كالعِهْنِ
وهـل يَرِدُ الحـوضَ الرويَّ مبـادِرا
مع الناسِ ، أو يـأبى الزحام فيستأني
أبو العلاء
(سقط الزند)

أما أُسرة الوليد – ونستعمل الأُسرة هنا بدلالتها المألوفة في عصرنا ، وبهذه الدلالة استعملها أبو العلاء في سقط الزند وفي رسالة الغفران [1] – فوالده « عبد الله بن سليمان » وُلِدَ سنة ٣٣٠ هـ ، وجدُّه أبو بكر محمد

(١) ص ٤٦٤ من طبعة الذخائر الخامسة / تحقيق الدارسة .

ابن سليمان على قضاء المعرة . وبعد عام واحد من مولد عبد الله ، توفي جَدُّه فخلفه أبوه سليمان على قضاء المعرة ، وولي معه قضاء حمص . وكانت لعبدِ الله أختٌ تزوجت في آل المهذب المعري . وولدُها « أبو صالح محمد بن المهذب » من لدات أبي العلاء ورفاقه في الدرس .

روى الأب « عبد الله بن سليمان » الحديثَ عن جدِّه ، وأبويه . وعن عددٍ من شيوخ الشام في عصره ، منهم : « الحافظ أبو بكر السبيعي » نزيل حلب ، و « عبد الله بن محمد البغَوي » وأخذ العربية عن « أبي عبد الله الحسين بن خالويه » إمام اللغة بالشام .

ويُذكَر « عبد الله » والد أبي العلاء ، في تاريخ المعرة وحلب : « فاضلا لغويا أديبا شاعرا »[1] .

وقد أصهر إلى بيت كريم من بيوت حلب ، فتزوج بنت محمد ابن سبيكة ، في وقت لم يحدده الإخباريون ، ولنا أن نطمئن إلى أن هذا الزواج ، كان حوالي سنة ٣٥٠ هـ أو بعدها بقليل . حيث نقرأ في أخبار الأُسرة ، أن أبا المجد محمداً ، الابن الأكبر لعبد الله ، ولد سنة ٣٥٥ هـ ، وأبوه في الخامسة والعشرين من عمره .

ومضت ثماني سنين قبل أن يرزق الأبوان بوليدهما الثاني أبي العلاء أحمد سنة ٣٦٣ هـ .

ثم وُلِد أخوه الأصغر : أبو الهيثم عبد الواحد ، على مُكْثٍ كذلك ، سنة ٣٧١ هـ .

****

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري ، ص ٤٩٢ – تعريف .

ولا كلمة واحدة ، فيما ذكر مؤرخو الأُسرة أو مؤرخو أبي العلاء ، عن الحياة الخاصة للأُسرة ، مما يمكن أن يضيف ضوءا جديدا لفهم موقف أبي العلاء من الزواج ومن المرأة ، إلى جانب ما نعرفه من ظروفه الشخصية ، مستقلة عن الجو النفسي والمعنوي للبيت الذي أخرجه إلى الدنيا وقدمه إلى الحياة .

وفي أُسرةٍ شاعرة مرهفة الوجدان ، كان يجدي علينا كثيرا ، لفهم نفسية أبي العلاء ، أن نعرف شيئاً ذا بال ، عن الروابط العاطفية بين أبويه ، وراء الصلة الزوجية التي أعطت ، على امتدادها أكثر من أربعين سنة ، ثلاثة أولاد فحسب ، بين كل ولدٍ وتاليه ، سبع سنين ، وأكثر ...

ونلتقط مع شح الأخبار عن الحياة الخاصة للأبوين والأُسرة ، بيتين رواهما « ابن العديم » من شعر عبد الله ، نفهم منهما أنه قد كانت له جارية تشغل من قلبه المكانة الخاصة ، وتشده إليها عاطفة قوية مُعلنَة . فلما ماتت حزن لفراقها حزنا شديدا بحيث ودَّ أن لو كان هو الميت ، وكانت هي التي تتقبل فيه العزاء ، قال :

- مولاكِ يا مولاةَ مولاهـا عـلى
حالٍ تسر عـدوَّه ، وتضـرُّه
وبِودِّه لو كنتِ أنـتِ مكانَـه
في الزائرين ، وأن قبركِ قبرُه

ويشهد نص آخر من شعره ، أنه كان مشبوب العاطفة رقيق المزاج والقلب ، متفننا في صنعة الشعر :

سمعتم بِأَجْـوَرَ من ظالـم أَعَلَّ الفؤادَ ومـا عـادَه
وقد كـان واعَدَني مـرةً فأَخلـف يـا قومِ ميعادَه

****

أما ملامح شخصيته ، فيما عدا الذي ذكروه من علمه وفضله وأدبه ، والذي رووا له من شعرٍ ينم عن رقة قلبه وحرارة عواطفه ؛ فنستطيع أن نميزها في حديث ولدِه أبي العلاء عنه . وهو لم يتحدث عنه ، فيما قرأت من آثاره ، إلا في مرثيته التي تفيض بالإكبار والإجلال ، وتمثله لنا نقي الضمير واليد واللسان ، مهيبا وقورا يتحاشى الزحام :

أَبِي حكمتْ فيه الليالي ولم تزل
رماحُ المنايا قادراتٍ على الطعنِ
مضى طاهرَ الجثمان والنفس والكرى
وسهدِ المنى ، والجيبِ والذيلِ والرُّدْنِ
فيا ليت شعري هل يخف وقاره
إذا صار أُحْدُّ في القيامة كالعِهْنِ
وهل يَرِدُ الحوضَ الرويَّ مبادراً
مع الناسِ أو يأبى الزحامَ فيستأْني
أَمرُّ بربْعٍ كنـتَ فيه كأَنمـا
أمر من الإكرام بالحِجْرِ والرُّكْنِ

وإجلالُ مغناكَ اجتهادُ مقصِّـرٍ

إذا السيف أَوْدى فالعفاءُ على الجَفْنِ

. . . . . .

ونعلم من أخبار أبي العلاء ، أن والده كان معلمه الأول ، منه سمع الحديثَ وتلقى دروسه الأُولى في علوم العربية . ومنه تلقى كذلك ميراثه الشعري حيث يناجيه في مرثيته :

أمُوْلى القوافي ، كم أراكَ انقيادُها

لك ، الفصحاء العُرْبَ كالعجم اللُّكْنِ

وقد ظل أبوه يرعاه ، ويقوده على الطريق ، إلى أن رُزِىء بموته .

وفي سنة وفاتِه ومكانها ، اختلف الإخباريون :

عند « ياقوت » أن عبد الله « توفي بحمصٍ سنة ٣٧٧ هـ » .

وعند « ابن العديم » أنه « توفي بمعرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ » .

والراجح عندنا قولُ ابن العديم بوفاة والد أبي العلاء بمعرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ ، على ما سوف نبينه فى موضعه من حياة أبي العلاء .

****

الأم

سقَتْني دَرَّها، ودعتْ، وباتت
تُعوِّذُني وتقــرأُ أو تُسَمِّــي

أبو العلاء، في شيخوخته.

قلما التفت مؤرخو أبي العلاء وجامعو أخباره، إلى الأُم التي أنجبت أديب العربية الأكبر. كل ما ذكروه عنها، أنها: بنت محمد بن سبيكة، وأنها مرضتْ وابنها أبو العلاء في بغداد، وماتت وهو في طريق العودة إلى معرة النعمان سنة أربعمائة.

ونستقرىء آثار أبي العلاء، فلا نكاد نجده يتحدث عن أمه في الشطر الأول من حياته. لكنها تبدأ فتظهر في آثاره، من بدء رحلته إلى بغداد، ثم يظل طيفها معنا في جوه، إلى آخر عمره.

وهو ما سافر إلى بغداد إلا بعد أن أذنت له في السفر، بصريح قوله في رسالته إلى خاله «أبي القاسم علي»:

« على أني والله قد أعلمتُها أني مرتحل ، وأن عزمي على ذلك جادٌّ مُزمِـع ، فأَذنت فيه » .

سامحه الله ، هل كانت بحيث تملك ألا تأذن له في السفر وقد أعلمها أن عزمه عليه جاد مزمع ؟

لقد صدقت كلمته : قال إنه أعلَم أمه بعزمه على السفر ، ولم يقل إنه استأذنها فيه . وكان يعاني من شعوره بما أضنى أمَّه من شجن فراقه ، فهو يقسم بالله أنه أعلمها بعزمه الجاد على السفر ، وأنها أذنت فيه ، ليخفف من وطأة إحساسه بالذنب الذي اعترف به صراحةً في مكاشفته لخاله أبي القاسم ، بعد موتها ، بأن الآجال لو لم تكن كتاباً مقدورا لوجب أن يُقتَل بأُمِّه صبرا ...

ولا أكاد أرتاب في أن وراء حنينه إلى المعرة ، أيامَ غربته في بغداد ، طيفَ هذه الأُم التي آثرها بأعمق الحب وأصفاه ، وكان حبه لها نقيا محضا غير مشوب بعنصر المهابة الذي يغلب على حبه لأبيه ، ولخاليه أبي القاسم وأبي طاهر . وقد أجهده الحنين إلى الديار إثر فراقه لها ، وكان تحنان الإبل يهيج مواجده وأشجانه ، ويلهب فيه الشجو والشوق ، حتى ليتساءل عما إذا كان ألم بهذي الإبل طيف خيال كالذي زاره فأشجاه :

لقد زارني طيفُ الخيال فهاجني
فهل زار هذي الإبْلَ طيفُ خيالِ
وإن ذهلتْ عما أُجِنُّ صدورُها
فقد ألهبت وجداً نفوسَ رجال

تهـادانيَ الأرواح حتى تحطـني
على يد ريح بالفـرات شمالِ
فيا برقُ ليس الكرخ داري وإنما
رماني إليـه الدهر منذ ليـالِ
فهل فيك من مـاء المعرة قطرة
تغيث بها ظمـآن ليس بِسَالِ

ذلك الطيف الزائر كان طيف أمه ، يعاوده في اليقظة والمنام . إذ نسمعه في إحدى مراثيه لها ، يتحدث عن حلم ألم به في الكرى ، ببغداد ، رأى فيه أنّ أحد نواجذه سقط فتشاءم وفي قلبه هاجس مرعب؛ لما بلغه في بغداد عن مرض أُمّه بالمعرة ، وإن استهول ـ فيما بعد ـ ضلالَ الأحلام ، فشتان بين سقوط ناجذ ، والمصاب في أم .....

وكان خبر مرضها هو الذي عجل بعودته من بغداد إلى معرة النعمان ، وحسَمَ قراره بانسحاب كان قد صمم نفسيا عليه ، وإن أقام يتهيأ له ويترقب الفرصة .

يقول في قصيدة من (سقط الزند) ، مخاطبا أهل بغداد بعد فراقه لهم :

أثارني عنكمُ أمران : والـدةٌ
لم ألقهـا ، وثراءٌ عاد مسفوتا
أحياهما اللهُ عصرَ البيْنِ ثم قضى
قبل الإياب إلى الذُّخْرَيْن أن مُوتَا

لولا رجـاء لقائيها لمـا تَبِعـتْ
عَنْسِي دليلا كسِرِّ الغمدِ إصليتا
ولا صحبتُ ذئاب الإنس طاويةً
تراقب الجَدْيَ في الخضراءِ مسبوتا

ذلك أنه آب إلى المعرة ، فوجد أمه قد ماتت من قبل أن يلقاها . فكأنما عاد لفرط حزنه ولوعته ، طفلا رضيعا فقد أُمَّه التي يرتهن بقاؤه بما تمده به من أسباب الحياة .

وتُشجِينا مراثيه لها ، على بُعد العهد بها ونأْي المكان ، ونحس أنها ومضات لهبٍ متقد في فؤاده المتصدع . ومنها ، ومن أشعار له في (اللزوميات) وأماليه عن أمه في (الفصول والغايات) ، ورسائله إلى خاله ـ وسوف نتدبرها بعدُ ـ ندرك عمق العاطفة التي كانت تربطه بأُمه ، وعجزه عن نسيانها والسلو عنها ، في يقظة أو في منام :

إذا نمتُ لاقيتُ الأَحبة بعدمـا
طوتْهم شهور في التراب وأحوال

« يا سلوة الأيام موعدُك الحشر ، موعدٌ واللهِ بعيد ... » .

وصدق أبو العلاء .

لم يسل عن أمه قط ، على تطاول الأَعوام وتنائي المزار : ففي شيخوخته الواهنة ، يذكرها في قصيدةٍ قالها في ابن أخيه « القاضي أبي عبد الله محمد بن أبي المجد » وكان عونا له ، يبذل نفسه في خدمته برّاً ورحمة :

أعبدَ الله ، مـا أسدى جميلا
نظيرَ جميـلِ فعلِك مثل أُمِّـي
سقتْني دَرَّهـا ودَعتْ وباتـت
تعوِّذني ، وتقـرأُ أو تُسمـي

وقال في (اللزوميات) يوصي بإكرام الأُم ويذكر لها ما حملت واحتملت :

تصدَّقْ على الأَعمى بأَخذِ يمينِه
لتهديَه ، وامنن بإفهامِكَ الصُّمَّا
وأعطِ أباك النِّصْفَ حيا وميِّتا
وفضِّلْ عليه من كرامتِها الأُمَّـا
أَقَلَّكَ خِفّـاً إذ أَقلَّتْـك مثقلا
وأرضعت الحولين واحتملت تمَّا
وألقتْك عن جهدٍ وألقاك لـذةً
وضمَّت وشمت ، مثلما ضمَّ أوشمَّا

****

العيشُ ماضٍ فأَكرمْ والديك به
والأُم أولى بإكـرامٍ وإحسـانِ
وحسبُها الحمل والإرضاع تدمنه
أمران بالفضـل نالا كـلَّ إنسان

ترى هل يبلغ صوتهُ الذين لقَّبوه بعلو المرأة ؟

هكذا على الإطلاق والتعميم ، لا يدرون أنه إن كان قد صد عن الزواج ، فإنه وضع المرأةَ أمّاً ، موضع التكريم والولاء ، ودكر فضل عطائها على كل إنسان ، وأصفى أمَّه الحب حميما والبِرَّ محضا .

وبلغ من ولائه للأُمومة ، أنه إذ يذكر ما احتملت من مشقة وهم ، وما بذلت من حنان وأسدت من جميل ، ينسى لها أنها شاركت في الجناية التي أخذ أباه بها في بيته المشهور الذي أوصى أن يُكتب على قبره :

هذا جناه أبي عـليَّ وما جنيت على أحد

****

الإخوة

« وكانت الفتاوى في بيتهم ، في
أكثر من مائتي سنة بالمعرة ... »

ابن العديم

(الإنصاف والتحري)

كانوا إخوة ثلاثة ، جمعتهم الأُبوة الواحدة والمهد المشترك ، وتلقوا جميعا ميراث البيت المعرِق في الفضل والعلم والأَدب .

على تفاوتٍ بينهم في حظ كل واحد من ذلك الميراث ،

وعلى تبَاعدِ ما بينهم نسبيا ، في المولد والسن والأَثر .

أَكبرهم : « أبو المجد محمد ، بن عبد الله بن سليمان » المولود سنة ٣٥٥ هـ « وكان فاضلا أديبا شاعرا ، وله ديوان شعر مجموع » ويعدونه مع الذين روى عنهم أبو العلاء .

ولأَبي المجد ولَدان ولِيَا قضاء المعرة :

• ابو محمد عبدالله ، وكان من أقرب الناس إلى عمِّه أبي العلاء وأبرهم بـــه وأكثرهم إخلاصا في خدمته ، وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه .

• والقاضي أبـــو الحسن علي ، قرأ على عمِّه أبي العلاء وسمع جميع أماليه ، ونسخها بخطه . وولِيَ قضاء « حَماة » سنة ٤٥١ هـ ، بعد موت عمه أبي العلاء بسنتين [1] .

****

وأصغر الإخوة ، بني عبد الله بن سليمان : أبو الهيثم عبد الواحد ، المولود سنة ٣٧١ هـ . كان شاعرا مجيدا ننقل من شعره – فيما يأتي من حديثِ الرحلة إلى بغداد – قصيدة مؤثرة كتبها إلى أخيه مستعطفا يسأله العودة إلى المعرة رفقا بأحبابه فيها . والقصيدة تعطينا فكرة واضحة عما كان أبو العلاء يحظى به من حب أخيه وإكباره . وقد « روى عنه أبو العلاء شيئا من شعره ، وجمعه لولده « زيد بن عبد الواحد ، ومنه قوله وقد مرَّ برجلٍ يقلع حجارة من أطلال « سياث » وهي المعرة القديمة :

مررت بربع من سياث فراعني
به زجَلُ الأحجارِ تحت المعــاولِ
أمُتلفَها ، شُلَّتْ يمينك خلَّهــا
لمعتبرٍ أو زائــرٍ أو مُسائِـــلِ

---

(١) ابن العديم : الإنصاف ، ٤٩٥ / تعريف القدماء .

منازل قوم حدَّثتنا حديثَهم

فلم أر أحلى من حديث المنازل »

وقد قرأ زيد بن عبد الواحد على عمه أبي العلاء . وكذلك قرأ عليه ولده منافر [جابر ؟] بن زيد . وكتب بخطه من تصانيف أبي العلاء ما شهد له المؤرخ الثقة « ابن العديم » بالفضل وحسن النقل .

****

وقد عاش أبو العلاء بعد أخويه .

أما الأخ الأصغر « أبو الهيثم عبد الواحد » فمات شاباً سنة ٤٠٥ هـ ، ولما يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره . وليس له عقب سوى ولده زيد ، وابنِه جابر .

وأما الأخ الأكبر « أبو المجد محمد » فعاش حتى بلغ الخامسة والسبعين ، وتوفي سنة ٤٣٠ هـ .

وفي ولدِ أبي المجد ، عَقِبُ بني سليمان . وقد استقصى « ابن العديم : مؤرخ حلب » مَن اشتهر منهم إلى منتصف القرن السابع الهجري ، بالعلم والفضل ، ومَن وَلِيَ منهم القضاء . ثم نقل عن أبي القاسم بن الحسين الأنصاري ، عن الحافظ أبي طاهر السلفي ، قال :

« قال لي الرئيس أبو المكارم ، وكان من أفراد الزمان : وكانت الفتاوى في بيتهم – بني سليمان – على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، في أكثر من مائتي سنة بالمعرة »[1] .

---

(١) الإنصاف والتحري : ٤٩٤ / تعريف القدماء .

كما تتبع « ياقوت الحموي » ميراث هذا البيت ، وقدَّم عددا غير قليل من أعلامه القضاة والعلماء والشعراء ، وأورد نماذج مختارة من أشعارهم . ثم اعتذر عن قصوره بأنه لم يقصد إلى استيعاب . قال :

« ... وغير هؤلاء حذفت أسماءهم اختصارا . وإنما قصدت الإخبار عن إعراق أبي العلاء في بيت العلم » . (١)

****

وماذا عن المجتمع والعصر ؟

المألوف في التراجم ، أن يأتي الحديث عن البيئة العامة التي عاش فيها المترجَم له ، إثر الحديث عن بيته وأسرته .

لكني في هذه الرحلة لحياة أبي العلاء ، أرى أن موضع الحديث عن المجتمع والعصر ، يحسن أن يتأخر إلى أن يفرغ أبو العلاء من الشوط الأول لرحلة حياته ، ويخرج إلى الدنيا الواسعة بسفره إلى بغداد ، حيث يواجه البيئة العامة لعصره ويبلو تجربة الاتصال بها والتنفس في جوها ، بعد أن كان قبلَ الخروج والسفر ، مشغولا عنها ، أو يكاد ، بهموم طموحه وشواغل تحدِّيه لمحنته .

أو بعبارة أخرى : كان شِبه معزولٍ في نطاق دنياه الخاصة ، عما وراءها من صخب الحياة العامة وأوضاعها .

فلنكتف الآن بما قدمنا لرحلة حياته من حديث عن ميراثه وبيته وأسرته ، لنمضي معه من بدء خطواته على الطريق ...

***

(١) معجم أدباء ياقوت (إرشاد الأريب) : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان .